المطلب السابع

العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا، وأن توحيد العبادة كان الاصطلاح السائد بين علماء السلف الصالح منذ عصر النبوة، وقد بينا حقيقة المصطلحات التي وردت في كتب التراث وأطلقت على علم التوحيد، كما دار الحديث أيضا عن مفهوم الإلوهية عند السلف وعند الخلف وعلماء الكلام، وكذلك مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية والفلاسفة.

كما بينا أن تصنيف التوحيد عند السلف ورد على نوعين باعتبارات معينة، وصنف إلى ثلاثة أنواع باعتبارات آخرى، كان أغلبها الرد على أهل البدعة من أتباع الجهمية، ودلالة النصوص القرآنية والنبوية جملة وتفصيلا، وتحدثنا عن الأسماء الاصطلاحية التي أطلقت على كل نوع من نوعي التوحيد.

وفي هذا المطلب يدور الحديث بإذن الله عن العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة أنواع، وذلك من خلال المحاور التالية:

• **العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين عند السلف.**

كان المعروف والمشتهر بين الصحابة والتابعين مصطلح الإسلام، والإيمان، والإحسان، بل علمهم جبريل ﷺ تلك المصطلحات من خلال حوار أجراه مع النبي ﷺ وهو مع أصحابه ﷺ.

روى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ، قَالَ: مَا الإِسْلامُ؟ قَالَ: الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ؟ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا اللهُ ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ.. الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ) [١].

وقد عرف النبي ﷺ الإسلام بالأركان الخمسة، وعرف الإيمان بالأركان الستة، وجعل الإحسان رابطا بينهما، بمعنى أن يكون

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١/٢٧ (٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو؟ وبيان خصاله ١/٣٩ (٩).

الإسلام الحق عن عقيدة وإيمان. ولا يعني ذلك أن نوعي التوحيد لم يكونا معروفين بين الصحابة والتابعين، فقد سبق وعلمنا أن توحيد العبادة لله هو ما تداوله الصحابة ﷺ فيما بينهم كمعنى وحيد لشهادة التوحيد، وأن إيمانهم بتوحيد الربوبية هو إيمان ضمني مفطور في نفوسهم بمقتضى شهادتهم أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ الزخرف:٩.

وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١. وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزمر:٣٨.

- **صنف التوحيد إلى نوعين على معنى الإسلام والإيمان.**

كان أصحاب النبي ﷺ يعلمون أن مصطلح الإسلام الذي ورد تعريفه في حديث جبريل عليه السلام هو في حقيقته توحيد العبادة لله، وإفراده بها، فالإسلام هو الخضوع والاستسلام للمعبود على وجه المحبة والتعظيم، وهذا تعريف العبادة. أما توحيد العبادة فظاهر من الشهادة التي هي أول ركن من أركان الإسلام، فكلهم يعلمون أن الإسلام لا يصح إلا بالتوحيد، وأن توحيد العبادة لله هو الإسلام .

كما أن أركان الإيمان التي وردت في حديث جبريل عليه السلام هي في حقيقتها توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وما يجب على المسلم اعتقاده في باب الغيبيات. وتلك الأركان التي ذكرها النبي ﷺ في مصطلح الإيمان بنيت على الإقرار بما نزل في القرآن من تقرير للحقائق العظمى في حياة الإنسان.

كلهم كانوا على عقيدة واحدة في توحيد الله بالعبودية، والإقرار بما جاء من عنده، سواء في توحيد الربوبية، أو الأسماء والصفات وسائر الغيبيات، فتصنيف السلف الصالح للتوحيد يتوافق مع النقل والعقل والفطرة السليمة. غير أن الأمر يتطلب مزيدا من البيان للعلة التي من أجلها صَنَّف السلف الصالح توحيد الله إلى نوعين .

ويمكن بيان العلل التي تكشف بجلاء ووضوح صدق ما عليه السلف، وبهتان ما يدعيه الخلف من تصنيفات عقلية فلسفية لتوحيد الله ﷻ، وأبرز تلك العلل يتمثل في النقاط التالية:

- **صنف التوحيد إلى نوعين لتمييزه عن توحيد المعتزلة.**

صُنِّف التوحيد إلى نوعين بناء على رد فعل السلف على المخالفين، فلما ظهرت الجهمية والمعتزلة كنبتة لا أصل لها في عصر السلف، ابتدعوا للتوحيد في اصطلاحهم معنى جديدا غير ما استقر في اعتقاد الصحابة والتابعين وعلماء السلف، فقالوا: إن التوحيد هو إثبات الأسماء ونفي الصفات، فجعلوا القرآن عضين، يقبلون منه ما يوافق

آراءهم الفاسدة، ويعطلون ما يخالفها.

وهذا هو الأصل الأول عند المعتزلة والمسمى بالتوحيد، وقد زعموا فيه أنهم أهل التوحيد وخاصتُه، وأنهم المنزهون لربهم عن التشبيه والتجسيم، وخلاصة رأيهم في التوحيد أن الله تعالى لا صفة له، لأنه منزه عن الشبيه والمثيل، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١.

وهذا توحيد يناقض الفطرة، ولا ينطلي إلا على أذهان السفهاء، بل هو توحيد يسخر منه جميع العقلاء، لا يقبله عاقل على نفسه، فكيف يقبله على ربه؟ فالعقلاء يمدحون غيرهم بإثبات الصفات التي تليق بهم، والموحدون لله حقا يحمدون ربهم بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وهذا ما دعا علماء السلف الصالح أن يبينوا حقيقة توحيد الأسماء والصفات، وأن ما جاء به القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة ﷺ في هذا الباب هو إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ دون تعطيل للأدلة، أو تأويل لها بما لا تحتمل، ودون تشبيه الله بخلقه، أو قياسه على المخلوق.

وكثر الحديث بين عامة الناس عن توحيد الأسماء والصفات أيام سيطرة المعتزلة، وشاع في الخلافة الإسلامية حتى أصبح الحديث فيه يكشف عن هوية المتكلم، ويحدد نوعية الشخصية المسلمة، واستمر

ذلك حتى عصرنا، بحيث يستطيع الناظر المحقق أن يعلم هوية المتكلم، إن كان من أتباع السلف، أم من أتباع الخلف.

كما أن الأصل الثاني عند أهل الاعتزال أداهم إلى الشرك بالله في الربوبية ،حيث رفعوا شعار العدل لينطلي على الجهال والدهماء. وهم يريدون بذلك أن الله لا يخلق أفعال العباد خيرها وشرها، فعطلوا قوله تعالى في إفراده بالربوبية، وإفراده بالخلق والتدبير: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات: ٩٦.

وكذلك عطلوا قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٢.

وعطلوا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فاطر: ٣.

وكذلك عطلوا قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ غافر: ٦٢. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ الزمر: ٦٢.

وقد ستروا تحت شعار العدل نفي التقدير، وعلم الله السابق بالمقادير، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم عذبهم عليه كان ذلك جورا وظلما، والله تعالى عدل لا يظلم، ولا يجور، فجعلوا أفعال الله أسيرة، أو مرهونة بأفعال عباده.

وهذا ما دعا علماء السلف الصالح أن يبينوا حقيقة توحيد الربوبية، وأن ما جاء به القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة ﷺ في هذا الباب، هو إفراد الله بأفعاله، وأن كل صغيرة وكبيرة في الكون واقعة بقضائه وقدره، وأن الخالق عند أهل التوحيد واحد، وأن ما سواه مخلوق، فالله ﷻ هو خالق كل شيء، وأن هذا الأمر متفق عليه بين الرسل، اتفقت عليه الكتب الإلهية، والفطرة البشرية، وجميع الأدلة العقلية، فليس في الوجود أمر إلا بمشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولم يخالف في ذلك إلا مجوس الأمة من المعتزلة القدرية، الذين أشركوا في الربوبية، وزعموا أن العبد يخلق فعله من دون الله وقدرته.

- صنف التوحيد إلى نوعين لدلالة النقل جملة وتفصيلا.

صُنف التوحيد إلى نوعين بناء على دلالة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية جملة وتفصيلا، ففي الجملة كل نص ورد في الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية شاهد لأحد نوعي التوحيد، فالنصوص التي تضمنت الحديث عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يتعلق بتدبيره الكوني، أو تحدثت عن عالم الغيب وما فيه من مخلوقات، أو ما يحدث في القبر، أو سيحدث من أمور الساعة والبعث، والحساب والجنة والنار، وسائر أمور الجزاء، أو كل ما يجب على المسلم اعتقاده والإيمان به، كل هذه النصوص تمثل شواهد نصية لتوحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو أثار الإيمان

بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والنصوص التي تضمنت الحديث عن تدبير الله الشرعي، وحكمه الديني، أو منهج التكليف في الحياة، وكيفية عبادة الله، من أمر أو نهي على سبيل الحتم والإلزام، أو أمر أو نهي لا على سبيل الحتم والإلزام، أو موقف الناس من تلك الأحكام، وجزاؤهم في الدنيا والآخرة، كلها شواهد لتوحيد الإلوهية والعبادة، وتحقيق لمقتضى النطق بالشهادة التي بعث النبي ﷺ من أجلها.

أما على وجه التفصيل فهذه شواهد نذكرها للتدليل والتمثيل، يمكن أن يُحتذي بها في معرفة الدليل على نوعي التوحيد، ففي أول سور القرآن، ورد ما يدل على أن التوحيد نوعان، توحيد الإلوهية والعبادة كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة:٥، وتوحيد الربوبية في رد الاستعانة إلى الله الواحد الأحد قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

قال ابن عباس ﷺ: (يعني إياك نوحد ونخاف، ونرجوك ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك، وعلى أمورنا كلها) [1].

ويذكر ابن القيم رحمه الله في هذين الأصلين العظيمين أن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى ألوهيته، والثاني من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإنابة، وإجلالا

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ١/٣٧، نشر دار الفكر بيروت.

وإكراما وتعظيما، وذلا وخضوعا، وخوفا ورجاء وتوكلا، والرب هو الذي يربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه، فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه. وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ هود: ١٢٣. وقوله عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ هود:٨٨. وقوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ الفرقان:٥٨.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ المزمل:٨/٩. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ الرعد: ٣٠.

وقوله عن أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ الممتحنة:٤. فهذه سبعة مواضع، تنظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة [1].

وتأمل كيف شبه المشركون المخلوق بالخالق، وأشركوا في الربوبية والإلوهية معا عندما عظموا الأحبار والرهبان، وأطاعوهم في معصية

---

(١) انظر بتصرف إغاثة اللهفان ١/ ٢٧.

الله، وجعلوا أمرهم مقدما على أمره، كما ورد في قوله ﷻ:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣١.

كانت الأحبار والرهبان أعظم مكانة في قلوبهم من ربهم، وأعلى منزلة وطاعة من خالقهم، فلم يوحدوا الله في الربوبية، وبمفهوم المخالفة كان الواجب عليهم إفراد الله بالربوبية واعتقاد أن ما سواه مهما علا فإنما هو عبد لله، وهم مأمورون على ألسنة رسلهم بتوحيد العبودية لله، وأن يعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو، ولكنهم وقعوا في شرك الربوبية والعبودية معا. وهذه الآية يماثلها في الدلالة على نوعي التوحيد قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ آل عمران: ٦٤. ففيها دعوة إلى توحيد الإلوهية، وإفراد الله بالعبودية، وفيها دعوة إلى توحيد الربوبية، ونفي أوصافها عن الذات البشرية.

وكثير من آيات القرآن جاءت بنوعي التوحيد في عبارات بليغة، وترتيبات منظمة، ودلالات محكمة، شاهدة لتوحيد الربوبية والعبودية معا كقوله تعالى عن عيسى ؈: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ آل عمران: ٥١. فتأمل توحيد الربوبية في قوله تعالى:

إن الله ربي وربكم. وتأمل توحيد العبادة في قوله: فاعبدوه، أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه (١).

وهذان النوعان من التوحيد من شك فيهما، أو اعتقد في عيسى عليه السلام الربوبية، أو توجه إليه بشيء من العبودية، فقد انطبق عليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ المائدة:٧٢.

وكثير من الآيات يترابط فيها التوحيد بنوعيه، فإما أن يكون أحدهما متضمنا للآخر، أو يكون أحدهما ملزما للآخر، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأنعام:١٠٢، فالله خالق كل شيء وقائم على تدبير أمره، فمن الواجب على عبده إفراده بالعبادة، وهذا توحيد ربوبية يوجب توحيد الإلوهية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ يونس:٣.

قال ابن كثير: (أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، أفلا

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/٤٣، نشر دار الفكر، بيروت.

تذكرون أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله إلها غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق)[١].

وعلى الوتيرة نفسها جاء قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ مريم: ٦٥.

وقوله سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ فاطر: ١٣.

وكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ غافر: ٦٢/٦٥. والآيات في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

وأما السنة فبابها واسع في الدلالة على نوعي التوحيد، فتأمل توحيد الربوبية في حديث ابن عباس رضي الله عنه عندما قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَال: اللهُمَّ لكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لكَ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٠٧/٢ نشر دار الفكر بيروت.

الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ) (١).

وتأمل توحيد العبودية في قوله ﷺ بعد ذلك: (اللهُمَّ لكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلهَ إِلا أَنْتَ، أَوْ لا إِلهَ غَيْرُكَ) (٢).

وصح عن أبي هريرة ﷺ أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: (يَا رَسُول اللهِ، مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. قَالَ: قُل: اللهُمَّ عَالَمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُل شَيْءٍ وَمَليكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، قَالَ: قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ) (٣).

فاشتمل الدعاء على الثناء على الله ﷻ بذكر توحيد الربوبية، وشمولية علم الله وملكه للخلق، ثم إقراره بالحق وتوحيد العبودية،

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد ، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل: ومن الليل فتهجد به نافلة لك ٣٧٧/١ (١٠٦٩) .

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٤٦٧/٥ (٣٣٩٢) وقال: هذا حديث حسن صَحِيح ، وأبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٣١٦/٤ (٥٠٦٧)، وأحمد في المسند ٩/١ (٥١) ، وصححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة (٢٧٥٣.

والاستعاذة به من جماع أسباب الشر كله، المتمثلة في هوى النفس وشبهات الشيطان.

ومثله أيضا دعاء سيد الاستغفار، فقد روى البخاري من حديث شَدَّاد بْن أَوْسٍ ﷺ أن النَّبِيّ ﷺ قال: (سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تقُول: اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلهَ إِلا أَنْتَ، خَلقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لكَ بِنِعْمَتِكَ على، وَأَبُوءُ لكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، قَال: وَمَنْ قَالهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْل أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْل الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالهَا مِنَ الليْل وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْل أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْل الجَنَّةِ) [1].

والأمثلة على ذلك كثيرة، وفيما تقدم كفاية لذوي البصيرة في دلالة النصوص على نوعي التوحيد.

- **صنف التوحيد إلى نوعين باعتبار الخبر والطلب.**

علمنا أن غاية التوحيد العظمى، وطريقة السلف المثلى، التي جاهدوا من أجل إثباتها في توحيدهم لربهم، أن يثبتوا ما أثبته الله لنفسه بتصديق خبره، وأن يطيعوا الله فيما أمر على لسان نبيه ﷺ، فالأول عندهم هو ما أُطلق عليه توحيد الوسيلة، أو توحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. والثاني هو ما أُطلق

---

(١) البخاري في الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٥/٢٣٢٣ (٥٩٤٧).

عليه توحيد الغاية، أو توحيد الإلوهية، أو توحيد العبادة، أو توحيد الإرادة، أو توحيد الشرع والقدر، فهم بقولهم: لا إله إلا الله، قد عقدوا في أنفسهم عقدا، أن يكون الله ﷻ هو المعبود الحق، الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان.

ويذكر أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ) أن حقيقة الإيمان والتوحيد، تكمن في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر؛ لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب، والأمر والنهي كل واحد منهما قول يتردد بين أن يطاع قائله، وبين أن يعصي، فمن سمع خبرا، واعتقد أنه حق، وصدق به، فقد آمن به، ومن سمع أمرا أو نهيا، فاعتقد الطاعة له، فكأنما آمن في نفسه به [(١)].

وقد بين ابن القيم أن جماع الدين شيئان: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، وأن أساس التوحيد والهداية التي من الله بها على الموحدين، يترتب على تصديق خبر الله، من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله.

ثم قال رحمه الله: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران، وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه، المانعة من كمال التصديق، وأن لا

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ١/٣٥.

يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه، المانعة من كمال الامتثال) [١].

ومن نازع في تقسيم التوحيد إلى هذين النوعين، فيقال له: لنكن على تصديق الخبر تصديقا جازما، وتنفيذ الأمر تنفيذا كاملا، فنصدق كل خبر ورد عن الله ﷻ وصح عن رسوله ﷺ، ونؤمن به على ظاهره الذي أراده الله ورسوله ﷺ، ونمرره قرآنا عربيا إلى سائر الناس، دون تدخل منا بتعطيله أو بادعاء مجاز، فلا نسعى بتأويله إلى تحريف الكلم عن مواضعه، ولا نزعم بتفويضه أنه كلام بلا معنى، ولا نعبث في الإيمان به كما فعلت يهود حين جعلوا القرآن عضين، فلا يليق أن يؤمن بعضا بما يوافق أصوله الكلامية في الصفات السلبية والمعنوية، ويؤول الصفات الخبرية أو يفوضها ويزعم أنها بلا معنى. بل نؤمن بالكتاب كله كما جاءنا عن الله ورسوله ﷺ.

- **التوحيد نوعان باعتبار استخلاف الإنسان في الأرض.**

وهذا الوجه واضح وضوح الشمس، فالله ﷻ قال عن العلة من خلق الإنسان ووجوده في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. فالآية دلت على أنه مستخلف في أرض الله. والخلافة في أصلها اللغوي تعني النيابة عن الغير. ولا بد فيها من استخلاف المستخلِف بكسر اللام، للمستخلَف بفتحها،

(١) مفتاح دار السعادة ١/٤٠.

وتحويله وإذنه له بها، ولا تصح في اللغة بغير هذا [١].

قال ابن حزم: (ومعني الخليفة في اللغة هو الذي يستخلفُه، لا الذي يَخْلُفُه دون أن يستخلفَه هو، لا يجوز غير هذا البتة في اللغة بلا خلاف، تقول: استخْلفَ فلانٌ فلانا يستخلفُه، فهو خليفَتُه ومستخلفُه، فإن قام مكانه دون أن يستخْلفُه هو، لم يُقَل إلا خلف فلان فلانا، يخلفه فهو خالف) [٢].

وإذا كانت الخلافة بمعنى التخويل والإنابة، فهل الإنسان خليفة ينوب عن الله في أرضه؟ أم يخلف من سبق بعد موته؟ وحتى نصل إلى مرادنا في ضرورة تصنيف التوحيد إلى نوعين من خلال معنى الاستخلاف، لا بد أن ندرك أن الاستخلاف يأتي على معنيين:

١- استخلاف عن نقص الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان، ويكون عند عجز المستخلف عن القيام بملكه، أو تدبير أمره، إما لغيابه أو قلة علمه، وإما لمرضه أو موته، كاستخلاف القائد نائبا على جنده أو قومه، كما ورد في قوله تعالى عن موسي عليه السلام:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الأعراف:١٤٢.

---

(١) التوقيف علي مهمات التعاريف للمناوي ٣٢٢/١ نشر دار الفكر ، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص١٥٦ نشر دار القلم ، دمشق.

(٢) الفصل في الملل والنحل ٨٨/٤، ومنهاج السنة النبوية ٤٩٤/١.

٢- استخلاف عن كمال الأوصاف، وذلك إذا كان لتشريف الإنسان وإكرامه، أو اختباره وامتحانه، وليس لعجز المستخلف عن القيام بشؤونه.ولله المثل الأعلى لما قال سبحانه للملائكة في شأن الإنسان: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. تحقق في الخلافة المعنيان، أحدهما أن يخلف بعضهم بعضا على وجه النقص، والثاني أن يكون خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان.

وكذلك يقال في كل آية ورد فيها استخلاف الله للإنسان، فإنها تدل على المعنيين معا، أنه خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، وخليفة لله على وجه الكمال وتنفيذ الأحكام الشرعية، غير أنه لا حول له ولا قوة في أي معنى من معاني الربوبية.

ومن هنا يظهر السر في تصنيف التوحيد إلى نوعين فالله ﷻ استخلف الإنسان في أرضه، وهو معه من فوق عرشه، يتابعه، ويراه ويسمعه، ولكنه سبحانه بين لنا أن استخلافه في هذه الدار، إنما هو على وجه الابتلاء والاختبار، والأمانة التي يحاسب عليها بجنة أو نار، فهو استخلاف ليس عن غيبة المستخلف أو عجزه، لأن الاستخلاف وإن اقتضى غياب المستخلف بين الناس في العادة، إلا أنه هنا يكشف سر الإيمان وحقيقة التوحيد في العبادة، بظهور عالم الغيب والشهادة، فالله ﷻ غيب بالنسبة للإنسان، لأنه ﷻ جعل مداركه محدودة، فهما غيب وشهادة ليس بالنسبة لعلم الله ﷻ بخلقه، ولكن بالنسبة لرؤية الإنسان لربه، ومدى علمه بكيفية ذات الله ﷻ ووصفه وفعله، فقال

سبحانه في شمولية علمه، لكل صغيرة وكبيرة في خلقه: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ ﴾ الرعد:٨/١٠.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾ السجدة:٦. وقال سبحانه في المقابل عن حدود علم المستخلف ومدي ضعفه: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥ ﴾ الإسراء:٨٥. وقال: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٦٥ ﴾ النمل:٦٥. فعلم الإنسان مهما بلغ محدود، لأن حواسه عليها غطاء وقيود.

ومن ثم كان النطق بشهادة الحق أمرا وتكليفا، وترك الزور وقول الصدق مدحا وتشريفا، فمن الجهل والعيب ادعاء الإنسان لعلم الغيب، أو القول على الله ﷻ بلا علم. ومن أجل ذلك أيضا ظهر تكليف المسلم بالتصديق الجازم لكل خبر ورد عن ذات الله ﷻ وأسمائه وصفاته، وكل ما ورد في القرآن والسنة عن أركان الإيمان، وأن يثبت ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وما أثبته رسول الله ﷺ، وحرم عليه أن يتقول على ربه، بوضع أقيسة عقلية يحكم بها على الأدلة النقلية، فيأخذ منها ما يشاء، ويعطل ما يشاء وفق فلسفة الأهواء، فيقع في التمثيل والتكييف، والتعطيل والتحريف، وهذا هو النوع الأول من

نوعي التوحيد.

أما النوع الثاني فقد ارتبط باستخلاف الإنسان، من جهة أن الاستخلاف مقيد بالخضوع لأمر الله ﷻ فيما استخلفه واسترعاه، وإظهاره لتوحيد العبودية والعمل في أرض الله ﷻ بالشريعة الإسلامية. وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله ﷻ في معاني الربوبية، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية، سبحانه وتعالى أن يتخذ شريكا له في ملكه، أو يتخذ وليا من الذل وينعزل عن خلقه، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١. وقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ الرعد:١٦.

- **العلة في تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع .**

كل من أقر بتصنيف التوحيد إلى نوعين على اعتبار تنفيذ الأمر وتصديق الخبر، أو على اعتبار توحيد الغاية والوسيلة، أو توحيد القصد والطلب، وتوحيد العلم والخبر، أو توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فسوف يقر ضرورة بتصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع، لو اعتبرنا توحيد الربوبية والأسماء والصفات نوعان، وليس نوعا واحدا كما سبق، فعند الفصل بينهما تظهر أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع اشتهرت بين المتبعين لنهج السلف الصالح بحيث غطت شهرتها علي التصنيف السابق بنسبة كبيرة، وقد كان الباعث على تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع يتمثل في النقاط التالية:

الأمر الأول: صُنِّفَ التوحيد عند السلف إلى ثلاثة أنواع على اعتبار وجود تصنيف مبتدع، أحدثه المتكلمون من الأشعرية منذ وقت مبكر، وأذاعوه بين الناس، وانتشر بحكم السطوة والقربة لدى الساسة والأمراء والخلفاء، كما حدث من المعتزلة عندما أداروا البلاد الإسلامية في عهد مجموعة من خلفاء بني العباس، فغيروا وبدلوا في معنى التوحيد.

هذا في مقابل ضعف السلف وزهدهم وبعدهم عن قصور الخلفاء والأمراء وأصحاب الأهواء، فالأشعرية صنفوا التوحيد إلي ثلاثة أنواع مبنية لا علي أدلة قرآنية ونبوية، كما هو الحال عند السلف، ولكن على دلالات عقلية سقيمة، وآراء فلسفية باطلة أطلقوا عليها مصطلح أصول الدين.

قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ) في بيان أنواع التوحيد عند الأشعرية: (وأما التوحيد، فقد قال أهل السنة وجميع الصفاتية: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له) [(١)].

---

(١) الملل والنحل ١/٤٢.

وفضلا عن ادعائهم أن الأشعرية هم أهل السنة، وسلبهم هذا الوصف عن المنتهجين لطريقة السلف، فقد صنفوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع محدثة، لا دليل عليها من كتاب أو سنة، فلم يكن بد من رد الفعل الطبيعي لهذا التقسيم المحدث، بنشر تصنيف السلف لأنواع التوحيد وإذاعته، وتركيز الضوء على أدلته المبنية في جوهرها على الأصول القرآنية والنبوية.

وسواء صنف التوحيد إلي نوعين، أو ثلاثة أنواع عند العلماء المخلصين أتباع السلف، فإن الغاية المرجوة عندهم نشر التوحيد الحق، ورد ما أحدثه الآخرون من البدعة والباطل.

وقد ظهرت سلسلة من الردود المتوالية في مؤلفات كثيرة، تدافع عن مذهب السلف، وتعيد الناس إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الباع الأكبر في ذلك، فقد صنفا حشدا هائلا من الردود والمصنفات في خدمة العقيدة السلفية، ويمكن القول إن من أتى بعدهما كان عالة عليهما، وعلى ما تركاه من مصنفات.

الأمر الثاني: صُنِّفَ التوحيد عند السلف إلى ثلاثة أنواع على اعتبار معنى التوحيد عندهم، وما يتبعه بالضرورة من إثبات معاني الكمال التي انفرد بها رب العزة والجلال عمن سواه، فالتوحيد كما تقدم هو الإفراد، ولا يكون التوحيد توحيدا إلا مع الإثبات، فما

الذي انفرد به رب العزة والجلال مما ورد في الآيات من إثبات؟ عند الحصر والاستقصاء لجميع الأدلة في القرآن والسنة، يتبين أن الله انفرد بثلاثة أشياء جامعة لا يشاركه فيها غيره:

أولها: انفراده سبحانه وتعالى بالربوبية، فلا رب سواه، ولا خالق ولا مدبر للكون إلا الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف:٥٤. وثلث آيات القرآن تقريبا، يدور حول هذا النوع من التوحيد وما يدل عليه.

ثانيا: أنه سبحانه انفرد بالإلوهية والعبادة، فلا يقبل الشركة فيها، فإما يُعْبَد وحده بإخلاص، وإما يَرُد عبادة المشركين عليهم. أما أن يَقْبَل من عباده أن يعبدوه ثم يعبدوا غيره معه في آن واحد، فهذا قد يقبله أحد الطواغيت والمعبودات الباطلة، أما رب العزة والجلال فهو أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معه غيره، تركه وشركه. هكذا جاء الحديث مرفوعا عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) [1].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ

---

(١) مسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ النساء:٤٨. وهذا النوع هو حقيقة الشهادة، وتجريد التوحيد والعبادة، وثلث ما ورد في آيات القرآن تقريبا يدور حول هذا النوع من التوحيد.

ثالثا: أنه انفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى، فكما أنه انفرد بالربوبية والإلوهية، فإنه أيضا انفرد بالأسماء والصفات، فلا سمي له ولا نظير، ولا ند له ولا مثيل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١.

الأمر الثالث: صنف التوحيد إلى ثلاثة أنواع بناء على دلالة النصوص القرآنية والنبوية، فالقرآن والسنة إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الأسماء والصفات، أو خبر عن قضائه وقدره، وحكمته ومشيئته، وكمال قدرته، وملكه لخلقه، وتدبيره لكونه، ووصفه لفعله، وهذا توحيد الربوبية، وكلاهما مستلزم للآخر متضمن له.

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، وذلك من خلال أمر بالعبادات، ونهي عن المخالفات، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين، متضمن لهما أيضا. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في

العقبى من الوبال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد [١].

ومن الضرورة أن نبين أن كل مسلم يكفيه أن يصدق بخبر الله تصديقا جازما، دون شك أو تكذيب، وأن ينفذ أمره عن خضوع ومحبة وتعظيم، كما كان الحال في عهد النقاء والصفاء زمن السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ ولكن مع انتشار الأوبئة الفكرية في المستنقعات التي أحدثها أتباع الجهمية في البيئة الإسلامية حتى عصرنا، يلزم المسلم الصادق أن يحصن نفسه في التوحيد بمضادات اعتقادية، وتحصينات قرآنية نبوية، كمناعة لهم وحماية من أفكار المخالفين.

- **تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع عند الأشعرية.**

الأشعرية في عصرنا يمثلون الأغلبية في العالم الإسلامي، وذلك ليس عن رغبة معتنقيه من أهل العلم في هذا المذهب، ولكن لكونه واقعا مفروضا في أغلب المؤسسات التعليمية في مرحلة التلقي والتعليم منذ الصغر، فهذا المذهب الذي يطلق عليه معتنقوه على زعمهم مذهب أهل السنة، ما زال مقررا في أغلب المدارس والجامعات في البلاد الإسلامية إلا من رحم ربك.

وطالب العلم يدخل منذ نعومة أظفاره إلى المدارس والمعاهد وهو

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، نشر مكتبة الرياض الحديثة ص١٧ وما بعدها، بتصرف.

خالي الذهن، فيجد مقررا منفرا غريبا في مادة التوحيد، ويجد المدرسين يلقنونه ويحفظونه أنواعا من التوحيد مبنية على أدلة عقلية بعيدة عن طريقة السلف المعتمدة على ما ورد في الكتاب والسنة.

ويستمر الطالب في دراسته حتى يصبح أستاذا جامعيا، وهو يجهل حقيقة ما عليه السلف، ولو نُوقش في ذلك إما أن يستنكف عن الخضوع للحق؛ لأنه أستاذ صاحب هيبة ومكانة، وقبول الحق عنده يعني إقراره بلوازم يصعب تصورها، أو الالتزام بها، وإما يزداد إصرارا على صدق الطريقة الأشعرية، ويتمادى في الدفاع عنها بحجج عقلية حتى يستحيل معه النقاش.

والحق يقال: إن بعض من يقوم على التدريس للطلاب، أو يلخص لهم بعض ما جاء في المقررات أو الكتاب، ربما يشعر بشيء من المسئولية عند فهمه للطريقة السلفية، فينبه طلابه على أن ما يدرسونه يجب أن يكون للنجاح في الامتحان، وليس للاعتقاد والإيمان، الذي يقابل به رب العزة والجلال يوم القيامة.

وقد رأيت ذلك بعيني في بعض الملخصات الخارجية التي تباع للطلاب، مما أثلج صدري، وأثار في نفسي العجب والاستغراب، ومن هنا كانت أهمية التعرف على التوحيد وتصنيفاته عند الأشعرية، والرد عليهم من باب النصيحة لإخواننا من جهة، وتحصين طلاب العلم من جهة أخرى.

لقد اعتمد السلف الصالح في اعتقادهم على الاستسلام لأمر الله وتنفيذه على وجه الكمال، والتصديق بخبره وإثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فالله ﷻ أعلم بنفسه ووصفه منا، ونحن ما رأيناه، وما رأينا له مثيلا فكيف نحكم على كيفيته بعقولنا القاصرة؟

وليس هناك من خيار أمام من يدافع بإصرار عن استخدام عقله في وصف ربه إلا أن يقع في المحذور، ويستخدم أقيسة التمثيل والشمول، فيقول: لو كان الله كذا، لكان كذا، ويجب عليه كذا، لأجل كذا، ولو قلنا في وصفه بكذا، لكان كذا وكذا، وهو في حقيقة مبدئه يعتبر ربه فردا من أفراد ذلك القياس، ينطبق عليه ما ينطبق على سائر الناس. ولذلك كان مذهب السلف في التوحيد مذهبا حاسما، قطع الطريق على هؤلاء بمنع الأقيسة العقلية المبنية على اجتهادات فكرية في التعرف على الغيبيات، أو كيفية الذات والصفات، سواء كانت أقيسة تمثيلية أو شمولية.

لكن إصرار الأشعرية على استخدام حصيلتهم العقلية، والتي جمعوها من أفكار فلسفية كلامية يونانية وثنية في وصف الله ﷻ، وزعمهم أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أداهم إلى أن يصنفوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع أساسية، فقالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له. وقد تقدم ما ذكره الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ) في وصف الأشعرية

بأنهم أهل السنة والجماعة، وأن التوحيد عندهم منقسم إلى تلك الأنواع السابقة.

والسؤال الذي يطرح نفسه على العقلاء: على أي أساس عقلي صنف هؤلاء المتكلمون التوحيد إلى ثلاثة أنواع؟ هل استندوا إلى حكم العقل بأن الله أعلم بنفسه ووصفه منا، فجاء هذا التصنيف مستندا على كتاب ربهم وسنة نبيهم؟ أو أنهم استندوا إلى فهم الصحابة والتابعين وأئمة السنة المقبولين عند جميع المسلمين، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم؟

في الحقيقة لم يستندوا في تصنيفهم للتوحيد لا إلى هذا ولا إلى ذاك، وإنما جعلوا الأمر مشاعا عقليا لكل من يدلي بدلوه في الموضوع، فأشبه الأمر استفتاءا شعبيا، واستبيانا فكريا لسائر العقلاء، كان مضمونه: أيها العقلاء الذين لم تروا ربكم، ولم تروا له مثيلا، خمنوا وبينوا لنا ما يجب في حق الله، وما يجوز له، وما يستحيل عليه، وسنأخذ في النتيجة النهائية برأي الأغلبية، لأننا نعلم أنه من المستحيل اتفاق الكل على استفتاء عادي، فضلا عن استفتاء فكري، ولكن سنعتبر رأي الأغلبية أصولا عقلية، ثم نعتبرها بعد ذلك أصولا لديننا وعقيدتنا. فقبلت مجموعة كبيرة من كبار المتكلمين العقلاء المشاركة في هذا الاستفتاء، ثم خرج بعضهم بنتيجة غريبة، لا يعرف فيها مقياس لفرز الآراء، ولا عدد الذين اتفقوا عليها من ذوي الأصوات العقلية الصحيحة.

المهم أن رأيا عاما ظهر في تلك النتيجة، نسبوه إلى زعيم من الزعماء، هو أبو الحسن الأشعري، وقد ظنوا أنه شارك معهم في هذا الاستفتاء، والواقع أنه لم يكن معهم أصلا عند ظهور تلك الآراء، لكنهم على كل حال توصلوا إلى هذه النتيجة، واعتبروا أنها تمثل الدستور الحق ومعيار الصدق في باب الاعتقاد، وأن من دان بها فهو من أهل السنة والجماعة، أو من أهل الحق والتحقق في الدين الخالص وبلوغ الحقيقة، فكان من بنود هذا الاتفاق تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع، بناء على الحيثيات التالية:

النوع الأول: أن الله واحد في ذاته، لا ينقسم، وليس له أجزاء وأبعاض، لأنه إن كان له أجزاء، لم يخل إما أن يكون كل جزء منه حيا عالما قادرا، أو كان بعض الأجزاء مختصا بالحياة والعلم والقدرة، فإن كان كل جزء منه حيا عالما قادرا، كان في ذلك إثبات آلهة متعددة، ويُستدل على بطلانه، وإن كانت الحياة والقدرة والعلم في جزء مخصوص، لم يكن الجزء الثاني حيا عالما قادرا، لاستحالة وجود العلة في محل، وثبوت حكمها في محل آخر [(١)].

النوع الثاني: أن الله واحد في صفاته لا شبيه له، لأنه يخالف الحوادث، والحوادث لا تقوم به، والدليل على استحالة قيام الحوادث بذات الباري تعالى، أنها لو قامت به لم يخل عنها، ومن لم يخل عن

(١) لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة للجويني ص ٩٨ بتصرف.

الحوادث فهو حادث، فالرب متقدس عن الاختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة، لا تحيط به الأقطار، ويجل عن قبول الحد والمقدار، والدليل على ذلك أن كل مختص بجهة شاغل لها متحيز، وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها، ويرتب على ذلك تعاليه عن الاختصاص بمكان، وملاقاة أجرام وأجسام [١].

النوع الثالث: أن الله واحد في أفعاله لا شريك له، والدليل على وحدانية الإله، دليل التمانع، وفحواه كما تقدم أننا لو قدرنا إلهين اثنين، وفرضنا عرضين ضدين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الضدين، وإرادة الثاني للثاني، فلا يخلو من أمور ثلاثة، إما أن تنفذ إرادتهما، أو لا تنفذ إرادتهما، أو تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، والنتيجة النهائية تنفيذ إرادة واحد فقط، هو الإله القادر على تحصيل ما يشاء.

كما ظهرت ضمن هذا الاستفتاء الكلامي العقلي بنود أخرى كثيرة، تضاف إلى تقسيم التوحيد عند الأشعرية منها:

١- أن أول ما يجب على المكلف القصد إلى النظر الصحيح المؤدي إلى العلم بحدوث العالم، وإثبات العلم بالصانع، والدليل عليه إجماع العقلاء على وجوب معرفة الله تعالى، وعلمنا عقلا أنه لا يُعلم حدوث العالم ولا الصانع إلا بالنظر والتأمل، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب [٢].

---

(١) السابق ص ١٠٦.

(٢) الغنية في أصول الدين ص٥٥.

٢- يجب في حق الله القدم، والبقاء، والقيام بالنفس، والوحدانية، ونفي التركيب وحلول الحوادث، وهي خمس صفات سلبية. وله سبع صفات نفسية فهو بذاته مريد بإرادة، عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، وهذه كلها معان وجودية أزلية. وقد ثبتت له هذه المعاني عندهم بناء على ما جاء في النتائج العقلية التي اختارها أغلب المتكلمين. ودليلهم العقلي فيها أن الفعل الحادث يدل على القدرة، والتخصيص يدل على الإرادة، والإتقان يدل على العلم، وهذه الثلاثة لا تكون إلا في حي، والحي لابد أن يكون سميعا بصيرا متكلما [1].

٣- النصوص الخبرية الواردة في الآيات القرآنية وصحيح الأحاديث النبوية التي وردت في صفات الله، هي عندهم موهمة للتشبيه والجسمية، وظاهرها أمور كفرية باطلة ومستحيلة وغير مراد لله في كلامه، والواجب عندهم إما أن تؤول، وإما أنها من أخبار الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد [2].

تلك أغلب الآراء التي نتجت عن ذلك الاستفتاء من قبل عقلاء المتكلمين من الأشعرية وغيرهم. وقد اعتبروها أصول الدين،

---

(١) انظر بتصرف رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص١٧ وما بعدها، وكتاب أصول الدين ص٦٣، لجمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد تحقيق عمر وفيق الداعوق، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت سنة ١٩٩٨.

(٢) انظر بتصرف المختار من شرح البيجوري علي جوهرة التوحيد ص ١٠٩.

والقواطع العقلية، والفيصل المبين في النظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما وافق تلك الأصول من النصوص والآيات فهو دليل ثانوي لهم، يقدمونه فقط عند الكتابة في المؤلفات، أو عند المحاجة في المخاصمات والمناظرات، حتى يشعر المخاطب أنهم يعتمدون على نصوص الوحي في إثبات الصفات والاعتقاد في الغيبيات، وما خالف أصولهم وتقسيمهم للتوحيد، فينبغي التعامل معها بأي وسيلة، وأن يبذل لها المرء كل حيلة، بادعاء مجاز أو تأويل، أو تهوين وتعطيل، أو تقبيحها في نفس السامع حتى تبدو ضربا المستحيل، المهم عندهم أن يقر بأن ظاهرها الذي ورد في التنزيل ظاهر باطل ومستحيل، ويجب صرفه إلى شيء آخر.

- **مناقشة الأشعرية في تصنيفهم التوحيد وبيان بطلانه.**

قول الأشعرية في التوحيد: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له. فيه ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ، وفيه ما يخالفه، وليس الحق الذي فيه هو الغاية التي جاء بها الرسول ﷺ. بل التوحيد الذي أُمِرَ به يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا الكلام ضرب من التلبيس الذي اختلط فيه الحق بالباطل؛ لأن الإنسان لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدا، بل ولا مؤمنا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، ويقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة

الله وحده لا شريك له، فإنهم إذا قالوا الله واحد في ذاته لا قسيم له ولا جزء له ولا شبيه له، فهذا اللفظ وإن كانت نيتهم تحمل معنى صحيحا، فإن الله ليس كمثله شيء في ذاته أو صفاته أو أفعاله، وهو سبحانه منزه عن تفرق ذاته أو فسادها، أو تحولها إلى ذات أخرى، بل هو واحد أحد وتر صمد.

والصمد هو الذي لا جوف له، وهو السيد الذي كمل سؤدده، لكنهم يدرجون تحت هذا التوحيد المزعوم، وتحت شعار أنه لا ينقسم نفي علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، الذي أخبر به عن نفسه، ومباينته لمصنوعاته، ونفي ما ينفونه من صفاته، ويقولون إن إثبات ذلك يقتضي أن يكون مركبا منقسما مشابها للحوادث [1].

قال فخر الدين الرازي وهو من أعمدة المذهب الأشعري في نفي علو الله على خلقه، وتعطيل استوائه على عرشه: (لو كان الله مختصا بالمكان، لكان الجانب الذي في يمينه، يلي ما على يساره، فيكون مركبا منقسما، فلا يكون أحدا في الحقيقة، فيبطل قوله: قل هو الله أحد) [2].

وهم لما نفوا الاستواء وعطلوا علو الفوقية بهذه الحجج العقلية، ساءت حجتهم عند عامة المسلمين، فالله ﷻ يقول صراحة هو على

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٢٢٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر أساس التقديس الفخر الرازي ص ٢٠٣.

العرش، وهم يقولون صراحة ليس على العرش، فما المخرج من هذه الورطة التي وضعوا أنفسهم فيها؟

والجواب في قول أحدهم: (لو سئلنا عن قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥؟ لقلنا المراد بالاستواء القهر والغلبة والعلو، ومنه قول العرب استوى فلان على المملكة، أي استعلى عليها واطردت له، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق : من غير سيف ودم مهراق) [1].

والعجب كل العجب أن قوة احتجاج الأشعرية بهذا البيت على نفي الاستواء أقوى من قوة الاحتجاج بكلام الله على إثباته. مع أن الأخطل النصراني الذي يعتقد الانقسام والتثليث في الذات الإلهية، هو القائل في شعره مستهزئا بالصلاة والصيام والأضاحي:

ولست بصائم رمضان يوما : ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزائر بيتا بعيدا : بمكة ابتغي فيه صلاحي

ولست بقائم كالعير أدعو : قبيل الصبح حي على الفلاح [2].

---

(١) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة ص ١٠٨ بتصرف.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٣٢/١) ، نشر دار صادر بيروت. والبداية والنهاية لابن كثير (٢٦٣/٩) نشر مكتبة المعارف بيروت. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي ٣٦/٧، تحقيق محمد ومصطفي عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٢هـ.

وتأويل الاستواء بالاستيلاء تحريف للكلم عن مواضعه في ثوب التأويل، فالتأويل يُقبل إن كان بدليل صحيح، لكن العرب لا تعرف أبدا استوى بمعنى استولى، بل إن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب.

قال الحافظ ابن كثير في التعقيب علي هذا البيت: (هذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل علي ذلك، ولا أراد الله ﷻ باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، ولا نجد أضعف من حجج الجهمية حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلي بيت هذا النصراني المقبوح)[١].

وقال أبو سليمان الخطابي وهو من أئمة اللغة المعروفين بتحقيق مصادرها، وأصول الاحتجاج بها: (وزعم بعضهم أن الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء، ونزع فيه إلى بيت مجهول لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله، ولو كان الاستواء ها هنا بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة؛ لأن الله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء وكل بقعة من السماوات والأرضين وتحت العرش، فما معنى تخصيصه العرش بالذكر؟! ثم إن الاستيلاء إنما يتحقق معناه عند المنع من الشيء، فإذا وقع الظفر به قيل استولى عليه، فأي منع كان هناك

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢٩٥/٩.

حتى يوصف بالاستيلاء بعده!) [(١)].

ومن ثم فإن تصنيف التوحيد عند الأشعرية على معنى أن الله ﷻ واحد لا ينقسم، وأن الواحد هو المجرد عن الصفات تحميل للفظ الواحد ما لا يحتمل، وهو ضرب من التحريف. ومعلوم أن كل تأويل لا يحتمله اللفظ في أصل وضعه، وكما جرت به عادة الخطاب بين العرب، هو نوع من التزوير والتدليس، والخلط والتلبيس الذي يضيع ثوابت القول وقواعد الكلم، فأهل العلم يعلمون أن إثبات الاستواء والنزول والوجه واليد والقبض والبسط وسائر صفات الذات والفعل، لا يسمى في لغة العرب التي نزل بها القرآن تركيبا، ولا انقساما، ولا تمثيلا.

وكان أولى بالصحابة والتابعين، وهم أئمة اللغة، وأسياد الفهم، أن يعترض واحد منهم على الأقل ويقول: كيف نؤمن بهذه الصفات التي تدل على التركيب والانقسام في الذات الإلهية؟ ولكن الصحابة والتابعين لم يأت إلى أذهانهم شيء من أصول الكلام عند الأشعرية.

كما أن الكلام في المصطلحات التي أحدثوها كالجسم، والعرض، والجوهر، والمتحيز، وحلول الحوادث، وأمثال ذلك، معاونة على نشر البدع، لأن هذه الألفاظ المبتدعة يدخلون في مسماها الذي ينفونه

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية ٢/٤٣٨، نشر مطبعة الحكومة، مكة المكرمة سنة١٣٩٢هـ. وانظر مختصر الصواعق المرسلة علي الجهمية والمعطلة١/٣٧ وما بعدها، حيث فند العلامة ابن القيم ادعاء الأشعرية بأن الاستواء بمعنى الاستيلاء من اثنين وأربعين وجها، وبين ضلال من اعتقد ذلك.

أمورا مما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فيقولون: إن الله لا يتكلم بصوت يسمع، وإلا كان محلا للحوادث، فكلامه عندهم معنى واحد، وإشارات مجملة، يفهمها جبريل عليه السلام بلغة الإشارة، ثم يعبر عنها بلغة كل رسول، فإذا عبر عنها بالعربية كان الكلام قرآنا، وإن عبر عنها بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنها بالسريانية كان إنجيلا. وهم في الحقيقة يفرون على ظنهم من تشبيه الله بالمتكلم السوي إلى تشبيه بالأخرس العاجز، فينسب الكمال في القول إلى جبريل عليه السلام، ويسلبه عن رب جبريل.

وبهذه المصطلحات أيضا نفت المعتزلة رؤية الله في الآخرة؛ لأن رؤيته على اصطلاحهم لا تكون إلا لجسم متحيز في جهة، ثم يقولون: والله منزه عن ذلك، فلا تجوز رؤيته، وقالت الأشعرية قولا أعجب وأغرب من قول المعتزلة في النفي، فقالوا: يُرى لا في جهة، لا أمام الرائي، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره، ولا فوقه، ولا تحته. ولا يدري عاقل كيف يلج مثل هذا الكلام إلى أم رأسه؟!

وهذه الألفاظ المجملة التي ابتدعوها وأحدثوها كالجسم، والعرض، والجوهر، والمتحيز، وحلول الحوادث، وأمثال ذلك، ينبغي للمسلم العاقل أن يفصل فيها ويقول: ماذا تريدون بتلك الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن والسنة فنحن مع القرآن والسنة، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت، أو يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا. ولا عليه إن امتنع عن التكلم بها معهم

القرآن والسنة ونسبوه إلى العجز والانقطاع، لأنه إن تكلم بها معهم دون تفصيل نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقا وباطلا، وأوهموا الجهال بموافقته لهم على اصطلاحاتهم، وحينئذ تتخلف المصلحة في بيان الحق [١].

قال ابن أبي العز الحنفي: (والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق، والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين، فضلا عن علمائهم. ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل، كثر المراء والجدال، وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح، ما يضيق عنه المجال) [٢].

- **أبو الحسن الأشعري سلفي المعتقد مخالف للأشعرية.**

وها هنا حقيقة هامة ربما تخفى على كثير من الدارسين للمذهب الأشعري، تلك الحقيقة التي نستطيع الجزم بها، أن أبا الحسن الأشعري الذي ينتسب إليه جميع الأشعرية في البلاد الإسلامية اليوم، يدين لله في

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣٢ بتصرف.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٤.

أغلب أمور العقيدة بغير ما يدين به هؤلاء، فطريقته في التوحيد طريقة سلفية تنطق بما نطقت به الأصول القرآنية والنبوية.

وهذا كتابه الإبانة عن أصول الديانة، وهو من أواخر ما كتب في بيان عقيدته، ولا يجرؤ أحد من الأشعرية التشكيك في نسبته، لتواتر تلك النسبة إليه عند كل من ترجم لشخصيته، وقد جاء فيه بلا لبس أو غموض، أو تعصب أو جمود، جاء فيه التصريح بأن عقيدته التي يدين لله بها هي بذاتها وعينها ونفسها عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وقد أثبت فيها علو الله على خلقه، واستوائه بذاته على عرشه، وأنه تعالى في السماء، وأثبت جميع ما ورد في صفات الذات والأفعال على عكس طريقة الأشعرية في عصرنا، المنتهجين لطريقة الجهمية والمعطلة.

قال رحمه الله: (فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة، فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون. قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ، وبسنة نبينا محمد ﷺ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام

مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم) [١].

ثم سرد عقيدته التي يدين بها، وقد جاء فيها أن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك، قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد [٢].

وقال رحمه الله عن عقيدته في الاستواء وعلو الله على خلقه: (إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواء يليق به كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وقد قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ النساء:١٥٨، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ السجدة:٥. وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الملك:١٦، فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السموات، وكل ما علا فهو سماء

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص١٩.

(٢) السابق ص٢١.

والعرش أعلى السماوات.

وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني جميع السماوات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ نوح:١٦. ولم يرد أن القمر يملؤهن جميعا، وأنه فيهن جميعا. ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله ﷻ على العرش، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطّونها إذا دعوا إلى الأرض) [١].

ثم أبطل رحمه الله قول القائلين من الجهمية وأتباعهم بأن معنى استوى استولى، وأبطل تأويلهم معنى الاستواء بالقدرة، وأنه ملك وقهر، وأن الله تعالى في كل مكان، وشنع على جحدوهم أن يكون الله ﷻ مستويا على عرشه بالكيفية الحقيقية التي يعلمها هو، كما قال أهل الحق، ثم فند أقوالهم، وكشف عورتهم، وأبان للجميع سوأتهم.

كما أنه أثبت من الصفات الخبرية ما يعتبره الأشعرية من بعده حتى اليوم تشبيها وتجسيما، وظاهرا باطلا مستحيلا، يجب صرفه عندهم بالتأويل إلزاما، فأثبت لله وجها بلا كيف، ويدين بلا كيف، وعينين بلا كيف، وغير ذلك من الصفات الخبرية على اصطلاح الأشعرية [٢].

---

(١) السابق ٢٢.

(٢) السابق ص١٢٥.

وهو يعني بوضوح شديد أن إثبات الوجه بلا كيف، واليدين بلا كيف، والعينين بلا كيف، هو إثبات حقيقة الصفة الذاتية لله، وأن المراد بقوله: "بلا كيف" هو ما يعنيه الإمام أحمد بن حنبل من نفي العلم بكيفية الصفة الذاتية الحقيقية الملازمة للموصوف، لا أنه يعني بقوله: "بلا كييف" نفي وجود الصفة، كما حاول بعضهم أن يشيع ذلك عن علماء السلف، وحاول أن يجعل نفي الكيفية نفيا لإثبات وجود الصفة، وهذا كذب على علماء السلف؛ لأنه لا خلاف بينهم أن الكيفية الغيبية كيفية حقيقية موجودة، وهي كيفية معلومة لربنا، مجهولة لنا، وأن الله سبحانه هو وحده الذي يعلم كيفية وجهه ويديه وعينيه، فهذا مراد أبي الحسن الأشعري من قوله: وجه ويد وعين "بلا كييف" .

فأين هذا ممن يوجب تأويل الصفات بحجة أنها موهمة للتشبيه والجسمية، ويوجب تأويلها بأي صورة مجازية، أو يُسأل عن الاستواء ويصر على أن معناه استيلاء وقهر، وأنه سبحانه في كل مكان، وليس على عرشه كما ورد في الكتاب والسنة؟!